

إنما يزدهر الأدب في عصور الفوضى الاجتماعية للدكتور زكي مبارك

—*—*—

[أتيت في كلية الآداب مناظرة بين الدكتور زكي مبارك والأساتذة لطنى جمعة برياسة الدكتور ابراهيم مذكور، واشترك فيها فريق من طلبة الكلية، واتفق الحاضرون للرأى الذى دافع عنه الدكتور مبارك بهذه الخطبة الصريحة، الخالصة من شوائب التودد للجمهور]

تلمون أن أمثال هذه المناظرات لا يراد بها غير إيقاظ العقول بغير طوائف من المذاهب والآراء، فالسناظر لا يؤاخذ بالرأى الذى ينحاز إليه، ولا يطالب بالوقوف عند ما يؤمن بصحته من الأدلة والبراهين

ليست هذه المناظرات إلا حركة عقلية يراد بها عرض صور مختلفة للوجه الواحد من وجوه الفكر والرأى، فليس من حق أحد أن يقول: إني أدعو إلى الفوضى حين أقرر أنها من الفرس السواح لا زدهار الآداب والفنون

وبعد تسجيل هذا للحفاظ أقول: إني مؤمن بالرأى الذى أعرضه اليوم من فوق منبر كلية الآداب، فلا يضيرني أن أتهم بحمد الظروف التى تشيع الفوضى فى المجتمع، ولا يؤذيني أن تكون أصواتكم فى صف خصمى، وهو صديق أعاديه فى هذه الساعة عداوة مؤقنة

وأسارع فأعترف بأنى أخاف أن تكون الهزيمة من نصيبى، لأنى اخترت الجانب للشائك من مناظرة اليوم، ولأنى أخشى أن يميل السامعون إلى إثبات السلامة، فيملنوا تأييدهم لرأى الخصم المحترم، حتى لا يقال: إن كلية الآداب تشجع من يرى أن «الفوضى الاجتماعية» قد تعود بالنفع على الآداب والفنون، وهى معهد بثور حوله النبار من حين إلى حين

وأما أقترض سلفاً أن الهزيمة ستكون من نصيبى لأواجه المناظرة بهزيمة المستقتل المستميت، ولأجد ما أعزى به نفسى حين ترونى أبليت فى الدفاع عن رأى أحسن البلاء

ومن أجل هذا، زهدت فى البراعة الخطابية، وأعددت خطبتي، وتديمتُ بها مكتوبةً بلغة صريحة، لتكون حجة باقية على صحة الرأى الذى تمصبت له وانحزت إليه
أما أرى أن الأدب لا يزدهر إلا فى عصور الفوضى الاجتماعية، فما هى الحجج التى تؤيد هذا الرأى الجريء؟

أستطيع أن أقول إن الفوضى الاجتماعية ترج الأذهان رجاً عتيقاً، وتفتح أمام الأذواق أبواباً ومذاهب، وتقهقر العقول على التفكير فى مصار الإنسانية عند اضطراب المجتمع

وأستطيع أن أقول إن الفوضى هى التى مهدت السبيل إلى ظهور الحكمة على السنة الحكاء، ولو شدت نقلت إن النبوات لم تظهر إلا فى الأوقات التى غلبت فيها الفوضى على المجتمع

فيكم من قرأ القرآن، وفيكم من قرأ التوراة، وفيكم من قرأ الإنجيل؛ فهل فيكم من يجرؤ على القول بأن تلك الكتب المقدسة خلت من الثورة على اضطراب المجتمع؟ وهل فيكم من ينكر أن أعظم الجوانب فى تلك الكتب هى الجوانب الخاصة بالتشريع؟ ولئن توضع قواعد الشرائع إذا اطمأن الأنبياء إلى أن المجتمع فى أمان من شر الفساد والاحلال؟

وما قيمة الفضائل التى تمدح بها الصالحون إذا صح أن العالم صحيح الأديم وأنه لا يعرف التمييز بين الفاضل والمفضول، ولا يشهد الفرق بين الصحة والاعتلال؟

وهل سميت الفضائل فضائل إلا بالقياس إلى الرذائل؟ وهل تصور للناس معنى الحياة إلا بمد أن شهدوا صورة الموت؟ وهل أدركوا رَوْح اليقين إلا بمد أن أدركوا قلق الارتياب؟
اسمعوا كلمة الحق

إن سلامة المجتمع من الفوضى والاضطراب لا تصل بالناس إلا إلى غاية واحدة: هى الأمان المطلق، والأمان المطلق يقود الناس إلى هاوية البلادة والغفلة والحق

وأنا لا أنكر أن السعادة قد تكون من نصيب الأحمق والناقل والبليد، ولكنى أنكر أن يكون التفوق فى الأدب من نصيب هذا الطراز من «السعداء» فالأدب فنٌّ من المحنة باصطراع العقول، واصطخاب الأهواء، واضطرام الأباطيل، وهو التمييز الصادق عما بثور فى المجتمع من الاقتتال العتيف بين الرشد والنسب هل قرأتم وصف الجنة فى الكتب الدينية؟ فيها من كل

الاضطراب في المجتمع الإسلامي؟ هو ذلك، ولا ريب، فأين من ينكر أن النزاع بين العرب والفرس عاد على الحياة الأدبية بأجزل النفع، وقدم للأدباء فرصاً ثمينة لتشرح خصائص الشعوب؟

وتسمعون في كل يوم أن مصر لها الزعامة الأدبية بين الأمم العربية. فن أين وصلت إلينا الزعامة وهي حق؟ أترونها نزلت علينا من السماء بعد انقضاء عصور الوحي؟ أترون الأمم العربية قدمنها إلينا هدية؟ لا هذا ولا ذلك، وإنما كانت لنا الزعامة الأدبية لأننا نفوق سائر الأمم العربية في النفع بأكثر نصيب من اضطراب المجتمع، وإليك بعض البيان:

في بلادنا تصطرح جميع المذاهب والمقائد وفي بلادنا تقتتل جميع المعاديات والتقاليد. وفي بلادنا يلتقي البحران: بحر المدينة الشرقية وبحر المدينة الغربية. وفي بلادنا يجتمع اللضب والحوت، وتخرج أنغام المؤذنين بأصوات النواقيس

عندنا برج بابل المشهور في التاريخ، بل عندنا برجان هما الأزهر والجامعة المصرية، يتجه أحدهما إلى الشرق فيكون خلف الضفة الشرقية للنيل، ويتجه ثانيهما إلى الغرب فيكون حول الضفة الغربية

وهذا اضطراب بلا جدال، لأنه تقلب للوجود بين الشرق والغرب، ولكن من هذا التقلب ظفرت مصر بالزعامة الأدبية بين الأمم العربية

فالأديب المصري يفرّب إن شاء فيرى القاهرة في ثياب (أليس) ومرجريت، ويشرق إن شاء فيراها في عباءة ليلى وظمياء ويفضل هذه البلبلة بين الحضارة والبداءة نهضت قواعد الأدب المصري الحديث

وقد حدثت تلاميذي بكلية الآداب في سنة ١٩٢٧ أن الأدب لن يسمو ولن يرتفع إلا إذا اشتركت المرأة في سياسة المجتمع ومعنى ذلك أن المرأة تخلق في حياة الرجل ألواناً من الرضا والغضب، والقسوة واللين، وتسوق إليه فنوناً من الرفق والعنف والبؤس والنعيم

المرأة مصدر اضطراب في حياة الرجل، ويفضل عصيان جدتها حواء وعرف جدنا آدم هذه الأرض، فحرث وزرع وحصد، وعرف معاني اليأس والرجاء، ومهد لأبنائه سبيل الأدب الرفيع بوصف ما في الحياة من أزهار وأشواك، وحقائق وأباطيل والمرأة الوديمة لا تخلق الأدب، وهل في الدنيا امرأة وديمة؟

فأفكته زوجان، وفيها حورٌ عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فيها كل الطيبات، وفيها الأمان المطلق من المرض والموت. ولكن هل سمعتم أن الجنة سيكون فيها كتاب وشعراء وخطباء وجرائد ومجلات وكلية آداب؟

وكيف تكون هذه الماني في الجنة. وقد أراح الله أهلها من صيال الشهوات والأهواء؟

قيل إن أهل الجنة سيكون أكثرهم من البله، وقيل في تفسير ذلك إن البله يقل تعرضهم للعوبات فيخرجون من الدنيا بسلام وقد أهلتهم البلاء لاحتلال الفردوس

وأقول بنير ذلك التفسير، أقول إن أهل الجنة سيكونون بلهاً لأن الله سيرحمهم من التعرض لآفات الشطط والجروح في ميادين الفكر والمقل والوجدان

وما حاجة أهل الجنة إلى الذكاء وهو عتاء؟ إن الذكاء وسيلة للتخلص من الماطب، وأهل الجنة في أمان من الماطب

والأدب في جوهره تعبيرٌ عن بلاء الإنسانية بالصراع بين الحسن والقبح، والنضال بين الشك واليقين، فاحاجة أهل الجنة إلى ذلك التعبير وهم يرزقون بلا حساب، ولا يحسون الخوف من تلون النفوس وتقلب القلوب؟

وأنتم تستطيون الرسول إلى ما يشبه نعيم الجنة في كل وقت، إن رضيت بمحوظكم في الحياة، ولكنكم لن تكونوا أدباء، لأن الأدب ليس إلا تعبيراً عن ظمأ الأرواح والقلوب إلى غيات عالية لا يدركها الراضون عن حظوظهم في الحياة

الأدب يأخذ وقوده من قلق الأفئدة والأرواح والمعقول، ولا يقع ذلك للقلق إلا عند اضطراب المجتمع. فليت شمري كيف يجد خصمي حجته وهو ينتظر ازدهار الأدب في رحاب المجتمع الهادي الرزين؟

الأدب من صور الحياة، والحياة تقلب وتقرع وسراع، وهل يبرف السلام المطلق غير الأموات؟

إن أساتذة الآداب يتحدثون بأن عصور الانحطاط السياسي في الدولة المباسية كانت عصور تقدم في العلوم والآداب والفنون وهم يملكون ذلك بالتنافس بين الرؤساء والأمراء والملوك

فا رأيكم فيمن يذكر لذلك سبباً آخر هو اليقظة التي خلقتها انحلال المجتمع السياسي في العصر المباسي؟

وهل كان النزاع بين العرب والفرس إلا صورة من صور

غضبة الله على جميع بنات حواء !

وما يهمني أن أدعوكم إلى الاصطباح والاعتناق بما عند الرعايب من زرق وطميش ، فليست من أنصار الفوضى الاجتماعية . واشتراك المرأة في المجتمع يجره حتماً إلى الفساد والاضطراب ، وإنما يهمني أن أنص على أن الشر الذي يصحب حياة المرأة يؤرث الحاسة الأدبية والفنية ، بفضل ما يؤرث من الأذواق والأحاسيس وفي الدنيا أبحار ورهبان وأشياخ كفاهم الله شر المرأة ، فماشوا سعداء ، لا ينتقلون من البيت إلا إلى المبد ، ولا من المبد إلا إلى البيت ، وذلك نموذجاً للحياة الخالصة من شوائب التعلق والانزعاج ولكن هؤلاء لن يصيروا أدباء ، ولن يكون لهم مكان بين أقطاب الفكر والمقل والدوق ، وإن ظفروا بنعمة عظيمة هي السلامة من شر الناس

ومال أبعد بكم في عرض الشواهد ؟ نحن اليوم في كلية الآداب ، فما هو السر في تفوق هذه الكلية من الوجهة الأدبية ؟ أليكون السر في أنها تدرس علوماً لا تدرس في الأزهر ودار العلوم ؟ إن كان اختلاف العلوم هو سر التفوق فن حق الأزهر أن يقول إنه يدرس علوماً لا تدرس في كليات الجامعة المصرية . ليس السر في المكان ، وإنما السر في السكان ، كما يقول أهلنا في الريف إنما تتفوق كلية الآداب بسبب ما تمنى من الفوضى الاجتماعية فهي أول معهد يلتقى فيه للفتيان والفتيات بلا تحجيب ولا مداراة ، فإن لم تكن أول معهد يلتقى فيه للفتيان والفتيات في الدرس الواحد فهي أول معهد كثر فيه بنات حواء حتى بلغ عددهن المئات

ومن المؤكد أننا غير راضين في سرائر أنفسنا عن هذه الصورة من صور المجتمع ، وليس فينا من يطمئن كل الاطمئنان إلى أن تكون ابنته عرضاً للعيون ، يتأثر خطواتها من يشاء من أهل الفضول . كلية الآداب في فوضى اجتماعية بشهادة الأفاضل من رجال الدين وبشهادة الأستاذ أمين الخولي . وفي هذه الفوضى إنهم كبير وفيها منافع ، فما هي تلك المنافع ؟ هي إذكاء المشاعر والمواطف والأحاسيس . هي قهر الفتیان والفتيات على تجميل مذاهبهم الحيوية في تناول شؤون الوجود

وهل من اللئيب أن يقال إن كل فتى يسره أن يكون موضع الإعجاب من إحدى الفتيات ؟

أتركوا اللغاف لحظة واحدة واسموا صوت الحق

إن الطالب في كلية الآداب لا يستطيع ولن يستطيع أن ينسى أنه محوط بأرواح لطاف ستال حياته الحاضرة بالتفسير

والتبديل . وهذا الطالب أحد رجلين : رجل بسيط يتجمل بالظواهر والأشكال فيحرص على هندامه بمض الحرص أو كل الحرص ، ليظهر أمام الفتيات بمظهر مقبول . ورجل عبقرى الروح لا تهمة المظاهر والأشكال ، وإنما بهمه أن يكون رجلاً يملك السيطرة بالمنطق والمقل والبيان

ومن هنا يجوز لكم أن تنظروا مطلع الشمس من هذه الكلية ، يوم يكون فيها طالبات لا يرون الرجولة في المظاهر والأشكال ، وإنما يرون الرجولة في نخوة الأفكار والآراء والمقول . وإنما اخترت كلمة « يرون » بهذه الصورة الصرفية لأن بنات هذه الكلية « سيكونون » في إسناد الضمائر « مساوين » للرجال في مضار المذاهب والآراء

ولن يقع ذلك بدون فوضى اجتماعية ، ولكن تلك الفوضى ستصنع الأعاجيب في تأريث القلوب والمقول

أنا أكره للفوضى ، وأرجو أن تخلو منها حياتي وحياتكم وحياة الأمانة بهذه الكلية ، إن صح أن فيكم وفيهم من ابتلته المقادير بالشكاية من اضطراب المجتمع الجديد

ولكني أقف هنا موقف التورخ لظاهرة من الظواهر الأدبية في معهد قد اشتغلت فيه بالتدريس أربع سنين ، ومن حق عليه أن يسمح بأن أجهر في رحابه بقول الحق ، فأقرر أن الأدب يزدهر في عصور الفوضى الاجتماعية

وهل أراي في حاجة ، بمد الذي سلف ، إلى أدلة وبراهين ؟ اسموا ، اسموا :

(البقية في العدد الآتي) زكى مبارك

إدارة البلديات — كهرباء

تقبل العطاءات بإدارة البلديات
(بوستة قصر الدويارة) لغاية ظهر
١٨ أبريل سنة ١٩٤٠ عن توريد
أدوات كهربائية لمجلس الزقازيق البلدي
وتطلب الشروط من الإدارة نظراً

٦٥١٠

٢٥٠ مليم .